

وانمات اليوم انما هي قرية فقيرة فيها بعض مساكن الرعاة
والفلاحين وهناك خارج القرية في سفح ذلك الجبل
العظيم حوش متهدم في وسطه كدية من الاحجار قالوا
هي قبر المعتمد واخرى بجانبها قالوا هي قبر الروميكية زوجه.

ولعل الاخوين طارو الكاتبين الافرنسيين يصدقان
عند قولهما : « ان قبر المعتمد هو كل هذا المكان الجميل ،
هو هذه الاشجار المخضرة ، هو هذه المياه الجارية ،
هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ،
هو تلك الثلوج التي نراها تبرق عن بعد ، هو ذلك
الشيء الذي لا يوصف ويبعث في النفس لذة ويفصلها
عن هذا العالم القاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشقتة
ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي . »

عجباً لقساوة الزمان في معاملة هذا الملك الشاعر !
فن يصدق ان المعتمد مات ودفنوا جنازته على انها جنازة
غريب .

وأى رثاء يرثى به احسن من هذه الابيات التي
تركها لتكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقاً ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت

بالخصب ان اجذبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا
بالموت احمر بالضرغامه العادي

نعم هو الحق وافاني به القدر
من السماء فوافاني لميعادي
ولم اكن قبل ذاك النعش اعلمه
ان الجبال تهادى فوق اعوادي

كفأك فارفق بما استودعت من كرم

رواك كل قطوب البرق رعاد

يبكي اخاه الذي غيبت وابله

تحت الصفيح بدمع رائح غادي

حتى يجودك دمع الطل منهمر

من اعين الزهر لم تبخل باسعاد

ولا تزل صلوات الله دائمة

على دفينك لا تحصى بتعداد

فتى تقيم مراکش موسم المعتمد ؟ ومتى ترضيه ميتاً

بعد ما اغضبتة حيا ؟ ومتى نلبي ارادته ؟ أ. ب.

المنصور الذهبي

للمؤرخ المحقق سيدي محمد بن عثمان الاستاذ بالكلية اليوسفية

انه لمن دواعي السرور والاعتباط أن تتاح الفرصة
لاحياء ذكرى المائة التاسعة لعاصمة العلم والفخار مراکش
الحمراء ، وأن تكون تلك الذكرى الخالدة من ابتكارات
« مجلة المغرب » التي نشكرها على هذه الذكرى السعيدة التي
سمحت لي بالمشاركة في احياء بعض تراثها حسب ما تسمح
به الظروف وتقضي به الحاجة .

يزداد اغتباطي بتخصيص الكتابة في عظيم من
الافراد الذين أنجبهم الحمراء ورفعت في سماء المجد مكانتهم
فكونت منهم ذاك العلم المفرد الذي منحته التأييد فبدا
منصوراً في أعماله موقفاً في آرائه .

ذلكم الرجل الفذ والعلم الشامخ هو أبو العباس أحمد
ابن الشريف محمد الشيخ الشريف السعدي الملقب بالذهبي
الذي كان تاجاً ذهبياً على هامة الدهر ومثالاً فخماً للامارة
الاسلامية في المغرب الاقصى . تلكم الشخصية المجيدة وذلكم

العبقري العظيم هو الذي احبر في حياته هذه العجالة لان الاطباب في الاشادة بما حفلت به حياته وما امتازت به شخصيته في مختلف النواحي مما لا يعد ميسوراً في كلمة مختصرة كهذه .

على أنني لا أترك كلمتي هذه خالية من دراسة بعض النواحي المنصورية التي تعد بحق غرة في جبين الدهر مما يستحق الافراد بالتأليف كنشأته وثقافته وادارته وفتحته وبراعته الفنية في انشاء العمار وابتكار الفنون الجميلة ومكانته الادبية مما يمكن ايجازه من تلك الحياة المفعمة بجلال الاعمال ومهمات الامور .

نشأته : نشأ المنصور من أبوين كريمين من الاسرة المالكة لعرش المغرب الاقصى في المائة العاشرة للتاريخ الهجري، وكان ملحوظاً بعين الرعاية والاعتبار من لدن أبويه العظمين الذين تناولته رعايتهما بالتهذيب حتى كونا منه ذلك الرمز الكامل للمثل العليا ، كان أبوه محمد الشيخ صاحب عرش المملكة المراكشية والقابض على زمام أمرها في عزه وسلطان ، وكانت أمه الجليلة السيدة مسعودة صاحبة اريكة العز والفخار في الحضرة العلية حيث تبوأَت مكانة سامية في قلوب المراكشيين بما قدمته لهم من معروف واحسان وما شيدته من مؤسسات خيرية كبرى يعد من أفرها مسجدها الكبير الذي شيدت مبانيه في أطراف عاصمة ملكها الحمراء وخصصت له من الاوقاف الخيرية الكبيرة ما يشهد لتلك المحسنة الجليلة بعظمة برها واحسانها مما يستوجب لها بحق أن تدعى - بام المحسنين - في عصرها الزاهر بما أسدته لشعبها الشكور من احسان .

فلا غرو اذا غذي المنصور من تلك الروح الطاهرة وتلك المبادئ الانسانية بانواع المحاسن وضروب الكمال ، مما يبين للناس أن ما سطر في تاريخ المنصور من العظمة

ورثه عن الاباء ليخلده ذكرى الاحفاد وقبساً منيراً للأجيال، فلئن كان عظيماً في قومه فقد كان عظيماً أباً وأماً من ارومة عدنانية امتزجت أغصانها بتلك الاريجية القرشية فكونت المنصور مكيناً في قومه قويا في ارادته وثاباً في عزماته زهياً في أيامه الزاهرة التي بسمت له في عصر كان جوده عابساً تهدده اخطار الطامعين من كل حذب وصوب .

ولد المنصور في العاصمة الادريسية سنة ٩٥٦ وشب في عفاف ورزاة تملأ قلبه عظمة اليقين بايام هنية تفر له عن حياة ملئت جوانبها بعظائم الامور .

يظهر طفلاً في رزاة الكهول ميالا للتعاضم بطبعه منذ فطرته الاولى تتجلى في صفاته أخلاق الملوك منذ نعومة اظفاره ، يتيه في ريعان الشباب بجلاء العزة وشمم الهمة ، تحوطه رعاية الملك وترمقه عين الخلافة مذ كان يافعاً إلى أن تبوأ أريكة عرش المملكة المغربية فهو مكين في قومه عظيم في نشأته متواضع في خلافته صائب في نظراته لا تغره زخرفة القول ولا يركن لمبالغة المتسجدين يزن الرجال باعمالها ويقدر العاملين بأثارهم ، تلك كانت اوصافه الاخلاقية في خلافته وشبابه وذلك ما أطنب في الاشادة بذكره الباحثون في حياته وإن كان المؤرخون لم يهتموا صفته الحقيقية من سعة المنكين وامتلاء الخدين و..... مما يستطيع معه الرسام بريشته او المثل الفني بنحته أن يخلق له صورة تتفق ملاحظها مع تلك الصورة الحقيقية حسب ما رقم في وصفه الكاتبون .

ثقافته : كان أبوه يتعهده في جميع أطواره الانشائية ليجعل منه ذلك العبقري الذي تهتدي بأرائه الصائبة أرجاء المغرب الاقصى وينشئه كما شاءت همة الملوك ان تكون اشبالهم الابية ، لذلك خصص له مربى أولاد الملوك الاستاذ أباً عبد الله محمد بن يوسف الدرعي المراكشي

ليتولى تربيته على وفق ما تقتضيه التقاليد المغربية ، فكان أول ما بدأ به حياته العلمية حفظ كتاب الله العظيم وذلك أعظم ما يقدمه ملك موفق لنجل يراد منه التوفيق ، شرع في حفظ كتاب الله وشاءت الاقدار الالهية أن يتم تلك المهمة العظيمة من حفظ القرآن واستظهاره وتجويده على يد استاذه ابي عبد الله ، وقديماً كان حفظ القرآن سنة امرء المغرب الاقصى حتى في هذا العصر الزاهر عصر العلم والمدنية .

فلئن كان المنصور قد حفظ القرآن في رعاية ابيه في المائة العاشرة فولي عهد المملكة المغربية المحبوب أمير الاطلس مولانا الحسن قد احتفل جلالة والده المعظم في هذا العهد بشروع شبلة العزيز في حفظ القرآن في عصر العلم والمدنية ولعمري ان ذلك مظهر رائع من المظاهر الكريمة التي تقم صفحة ذهبية اخرى الى الصحف العظيمة التي خلدها التاريخ لجلالة ملكنا المعظم أيده الله وخلد ملكه وأقر بامير الاطلس عينه ، وحفظ القرآن لاولاد الملوك عادة شرقية شريفة المبدأ سامية الغاية يرجى من ورائها توحيد الثقافة بين الامراء وافراد الشعوب ورضي الله عن القائل^(١) : « لقد آن أن يفهم الغافلون أن الامة التي يحفظ أطفالها القرآن هي أهدى من أمثال الامة التي يحفظ أطفالها افاصيص لافونتين » مرحى لها كلمة صادفت الاستحسان من وراء البحار .

تلك كانت نشأة المنصور وذلك كان مبدأ حياته العلمية ثم شرع يقتطف من المعارف ما تطمح له همم الملوك العلية فوجه عنايته الخاصة للمبادئ العربية التي تعتبر كسلم يرتقي به التفكير إلى فهم كلام العرب وما حبره الشيوخ وجمعه المؤلفون من معارف فاتخذ لذلك الاستاذ ابا العباس القدومي وبعد أن برع في النحو أتبعه باصول الدين

(١) القائل هو الاستاذ زكي مبارك في مقدمة المائحات النبوية ص ١٣ .

على أبي العباس المنجور والفقه على أبي الربيع سليمان وقرأ الرسالة على الاستاذ ابي عمران موسى المراكشي الروداني وتاقت نفسه الى العلوم الرياضية — ولا أقصد الرياضة في الاسلام وإنما أقصد الرياضة حسب الاصطلاح المحفوظ — فأخذ الحساب على أبي محمد عبد العزيز المراكشي وبرع فيه وفي الهندسة وألم ببقية العلوم الرياضية وسمع علوم البلاغة والعروض وكافية ابن الحاجب والشمسية في المنطق وقرأ الاصول ثم أخذ الكتب الستة على الشيخ رضوان بن عبد الله والشيخ ابي عبد الله محمد بن علي ، وأخذ التفسير والحديث والكلام على شقرون بن هبيرة الله الوهراني وأخذ عن غير اولئك الشيوخ كالحميدي شيخ معهد فاس حتى جمع في ثقافته العلوم التي تروج اذ ذاك بالمدرسة المغربية وأحسن الاساليب التعليمية التي كان يتبعها الشيوخ وقتئذ في اذكاء ملكة الفنون العلمية وقد بلغ النهاية في سائر العلوم بنباهة فائقة وفهم ثاقب وقد استعمل ذكاءه الوقاد في ايضاح مشاكل كتاب اقليدس في الهندسة وكان مما يستصعبه الشيوخ بما اوتيته من ذكاء وفطنة .

وقد رأى كثرة الشيوخ وعلو الاسناد وأخذ الاجازات وتتبع الفهارس والاستيناس بكل ماله علاقة بفنون الحديث وعلوم التفسير مما تستوجبه التقاليد المرعية حيث أن المدرسة القديمة تباهي بذلك وترى في الاجازة اعترافاً من موقعها بمكانة المستجيز من الوجهة العلمية كشهادة يقدمها الشيخ لتلميذه بصحة مروياته لذلك بعث المنصور يستجيز علماء مصر القاهرة ليتصل سنده بسند الكنانة حرسها الله وتتقوى مروياته بروح المشاركة التي تشد عضده العلمي وبكل رعاية أجازه الاستاذ ابو عبد الله محمد بن يحيى القرافي اجازة عامة بسط القول فيها وكذلك أجازه الاستاذ أبو عبد الله محمد البكري المصري اجازة تتفق مع مكانة

المنصور وقد حلى صاحب الاستقصاء تاريخه بفقرات منها ص ٥٥ ج ٣ ، وقد كان المنصور مولعاً بالكتب الادبية ودراستها دراسة خاصة وقد برع في تلك الفنون براعة تامة وعني بالتأليف عناية خاصة وله تقايد مفيدة على التفسير وكتاب في السياسة وغير ذلك وقد نشطت حركة التأليف في عصره نشاطاً كبيراً امتثالا لاوامره لاصحاب الاقلام بالجمع والتأليف في مختلف العلوم .

مهارته الادارية في عهد خلافته : حقاً كان المنصور الذهبي من نواذر الدهر الذين احتفظوا بتلك الشخصية التاريخية الممتازة في حياتها بما يضمن به الدهر على كثير من العظماء لانه ان كان سياسياً ماهراً وقائداً عظيماً وشجاعاً قوياً فقد كان كذلك رجلاً إدارياً عظيماً زودته الايام بمخباتها وحنكته الظروف بتجاربها فبرزت من ذلك الاداري المرن الذي بات شخصية تاريخية وستظل كذلك موضوعاً لشباب الاقلام مر الدهور .

ادار حركة وادي المخازن بهمة ونشاط واستطاع بمهارته النادرة أن يكون العامل القوي في انتصار الجيش المغربي على جيش الصليب البرتغالي بعد أن استأثرت يد المنون باخيه أبي مروان صاحب العرش اذ ذاك قبل أن يقدر لهم النصر في ساعة رهية تختل من جلالها دقات القلوب .

كتب له النصر وانتقلت له الامارة في حين البشري واعترفت الجماعة له بالخلافة الشرعية في هدو وسكون بدون أن يحصل اضطراب في اطراف المملكة وقد وردت عليه البيعة من العواصم المغربية فتم له الامر .

وكان أول ما بدأ به أعماله الادارية في خلافته تهدئة الجيش من روعة لولا حكمة المنصور لأدت به الى الانحلال في وقت يستدعي الهدو والسكون حيث أن الجيش طلب من المنصور بعد امارته أن يمنحه مرتباته

العسكرية ليتسنى له التمادي في مباشرة اعماله ومتابعة خطه فباغتته المنصور بطلب خمس الغنمة ليتسنى له ترتيب وظائفهم المطلوبة من خمس الغنم وكانت مفاجأة غريبة حيث يتعذر على الجند ارجاع المغنم وقد مضى توزيعها في غير روية ولا امهال لذلك صعب عليهم الامر فتلطفوا في التنازل عن مطالبهم على أن لا يعاد قسم الغنم فلبى طلبهم في هبة وجلال ، وبعد انتصاره بعث رسل البشرى الى سائر الممالك الاسلامية والى دار الخلافة العثمانية باخضاعه للجيش البرتغالية التي فلت صفوفها وتولت الادبار في زحفها رغماً عن قوتها واحتشاد جموعها من الدولة الايطالية والاسبانية والجرمانية تحت القيادة البرتغالية كتبت لها الهزيمة تحت راية المنصور بعد انسداد الستار عن حياة ابي مروان فعظمت بذلك مكانته لدى الامم الاسلامية ورفعت رايته البيضاء التي ترفرف على الرؤوس في تلك الساعة التي كسي فيها المنصور بدثار الخلافة المغربية وحلي بشعار الملك .

قفل المنصور بعد انتصاره راجعاً الى العاصمة الادريسية ثم توجه الى عاصمة ملكه مراكش المحراء فاستقبله اهلها بما تستحقه عظمتهم واصبحت جموع الوافدين تنسل للعاصمة من كل حذب وصوب لاداء مراسم التحية للخليفة المنصور .

بعد كل ذلك اخذ المنصور في ترتيب الجند ترتيباً ادارياً غريباً اتبع فيه الطريقة العثمانية ومزجها بما عهد عند الدولة العربية و اضاف الى ذلك نظم الدولتين المرابطة والموحدة فاستخرج من مجموع تلك النظم طريقة مثلى سنّها للاجناد ، قسم الجند الى فصائل وجعل على كل فصيلة قائداً محمداً ترجع اليه رياستها وترتبط تلك الرئاسة بالقائد الاعلى للجيش وهو المنصور .

محمد بن عثمان

«يتبع»